المقدمة

في تعريف القانون ونشأته والحاجة إليه

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف القانون

القانون في اللغة:

ينص علماء اللغة على أن كلمة قانون غير أصلية في لغتنا العربية. يقول ابن منظور في معجمه اللغوي (لسان العرب): «القوانين الأصول، الواحد قانون، وليس بعربي»[١]، وينقل عن العلامة اللغوي ابن سيده قوله: «وأراها دخيلة»[٢].

ويرى أبو البقاء الكفوي أن العرب أخذوا هذه الكلمة من اللغة السريانية[٣]، ويرى بعض أساتذة القانون أن العرب أخذوها من اللغة اللاتينية من كلمة.. «Kanon»، ومن هذه الكلمة أخذت كلمة «Canon» الفرنسية[٤]. وأرى أن هذا الرأي بعيد عن الصواب، ذلك أن صلة الأمة العربية باللغة اللاتينية كانت ضعيفة إن لم نقل معدومة في فجر الإسلام، وهذه الكلمة استعملها العرب في القرون الأولى، والذي ذهب إليه بعض المحققين من الباحثين في تاريخ القانون أن هذه الكلمة يونانية الأصل، دخلت إلى العربية عن طريق اللغة السريانية[٥].

وتعني كلمة قانون في اللغة السريانية كما يذكر أبو البقاء الكفوي في كلياته: «المسطرة، ثم نقل معناها إلى القضية الكلية، من حيث تستخرج بها أحكام جزئيات المحكوم عليه فيها، وتسمى تلك القضية أصلًا وقاعدة، وتلك الأحكام فروعًا، واستخراجها من ذلك الأصل تفريعًا»[٦].

---

(١) «لسان العرب» (٣/ ١٧٧)، وانظر: «مختار الصحاح» [٥٥٣].

(٢) «لسان العرب» (٣/ ١٧٧).

(٣) كتاب «الكليات» لأبي البقاء الكفوي. القسم الرابع ص[٦٠].

(٤) «المدخل لدراسة القانون» للدكتور منير الوتري ص[٣] مطبعة حداد - البصرة.

(٥) «فلسفة التشريع» لصبحي محمصاني ص[١٦].

(٦) «الكليات» القسم الرابع ص[٦٠].

obeikandi.com

وتعني في اللغة اللاتينية: «القاعدة والتنظيم، وكانت تطلق كلمة «Canon» الفرنسية في العصر المسيحي على القرارات التي تصدرها الكنيسة في أوربا»[(١)].

وأطلقها العرب على المعنى نفسه المستعمل في اللغات الأخرى، يقول الجرجاني: «القانون: أمر كلي منطبق على جميع جزئياته، التي يعرف أحكامها منه، كقول النحاة: الفاعل مرفوع، والمفعول به منصوب، والمضاف إليه مجرور»[(٢)].

فكلمة قانون تعني: القاعدة المنضبطة، أو القضية الكلية، وقد أجاد الفيروزآبادي وأفاد عندما عرَّفها تعريفًا موجزًا جامعًا فقال: «القانون مقياس كل شيء»[(٣)] وقد استخدم العلماء هذه الكلمة في الشرائع والطب والسنن الكونية التي تحكم الكون وغيرها، وكثيرًا ما يتردد في المحافل والمنابر وعلى صفحات الكتب والمجلات تعبيرات مثل: قانون الجاذبية الأرضية، وقانون الغليان، وقانون الطفر، ويراد بالقانون هنا القاعدة المطردة التي تفيد استمرار أمر معين وفقًا لنظام ثابت، وهذا المعنى أطلق عليه القرآن مصطلح: السنن الإلهية، وهي السنن التي تحكم الكون، كما تحكم العباد.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وهذه السنن لا تتغير ولا تتبدل إلا إذا شاء الذي وضعها خرقها، كما فلق البحر لبني إسرائيل، وسلب النار الإحراق عندما ألقي فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) «المدخل» لمنير الوتري ص[٣].

(٢) «التعريفات» للجرجاني ص[١٤٩] مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.

(٣) «القاموس المحيط» (٤/ ٢٦١) طبع المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - الطبعة الخامسة.

القانون في الاصطلاح:

يريد علماء القانون بالقانون: مجموعة القواعد[١] التي تحكم سلوك الأفراد في الجماعة، بحيث يتعين على كل فرد أن يخضع لها طوعًا أو كرهًا، ومتى رفض الفرد الانقياد لها وإطاعتها فإن الدولة تقسره على ذلك[٢].

ثم إن علماء القانون يطلقون كلمة قانون إطلاقات شتى:

١- فمنهم من يطلقها على كل قاعدة من قواعد المعاملات العامة الإلزامية.

٢- ومنهم من يطلقها على مجموعة من قواعد الأحكام التي تدور حول موضوع معين، فيقولون: القانون الجنائي، أو القانون المدني، أو قانون الإرث، يعنون بذلك المدونة التي تضم كل القواعد التي تدور حول كل موضوع من هذه الموضوعات.

٣- ومنهم من يطلق القانون على الشرع والشريعة التي تضم عدة مجموعات حقوقية متناسقة، فالشريعة الإسلامية - مثلًا - تضم مجموعة أنظمة كالقانون الجنائي، والقانون المدني، والقانون الدولي...ومجموعة هذه الأنظمة يسودها الانسجام والتناسق والترابط لصدورها عن شريعة واحدة هي الشريعة الإسلامية.

٤- وقد كثر استعمال كلمة «قانون» في العهد العثماني للدلالة على الأحكام الصادرة من الدولة، ويريدون بذلك التفريق بينها وبين أحكام الشرع الحنيف المبنية على أدلة الشريعة، لاسيما إذا كان الحكم في المسألة الواحدة يختلف في القانون عنه في الشريعة[٣].

---

(١) يقابل القاعدة القانونية عند علماء الشريعة الحكم الشرعي.

(٢) راجع: «المدخل للعلوم القانونية» للدكتور توفيق فرج ص[١٥]، و«المدخل» لحجازي (١/ ١٤٧).

(٣) راجع: «فلسفة التشريع» لصبحي محمصاني ص(١٧-١٨).

obeikandl.com

الشريعة الإسلامية هي القانون:

يرى علماء القانون أن الأحكام التي يتضمنها القانون لابد أن تكون صادرة عن سلطة عليا تملك قسر الناس على الالتزام بها، كما تملك معاقبتهم إذا هم خالفوها، كما يرون أن تلك الأحكام التي يحويها القانون يجب أن تكون عامة ودائمة[١].

وبناءً على تعريف القانونيين للقانون نقول لهم: ليس هناك من قانون يستحق أن يسمى قانونًا إلا الشريعة الإسلامية، لأنها صادرة من عند رب العباد الذي له وحده الحق في إصدار الأحكام والتشريعات التي تحكم العباد، وله الحق في معاقبة الذين يخالفون أحكامه وشريعته، وهذا الحق لم يعطه الله لأحد من خلقه، لا من الملائكة ولا من البشر، وكل القوانين الصادرة عن البشر تعتبر قوانين باطلة على هذا الأساس، لأنها صادرة من الذين لا يملكون حق إصدارها.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

ثم هي باطلة أيضًا لأن هذه القوانين البشرية غير عامة ولا دائمة، وهم يشترطون في قوانينهم العموم والدوام، وتنفرد شريعة الله العليم الخبير بالشمول والكمال والدوام.

---

(١) راجع: «المدخل للعلوم القانونية» لتوفيق فرج ص[١٥]، و«المدخل» للدكتور حجازي (١/ ١٤٧).

obeikandl.com

مصادر القوانين الوضعية

كانت أكثر الجماعات الإنسانية في الماضي تتحاكم إلى الأعراف التي تنشأ فيها، وقد كانت هذه الأعراف التي يتوارثها الخلف عن السلف قانونًا يحكم القبيلة أو المدينة أو الأمة، وكان الخروج عن هذه الأعراف يعد جريمة كبيرة، والعرف هو اعتياد الناس على قاعدة معينة واتباعهم إياها في معاملاتهم وشعورهم بضرورة احترامها، أو هو بعبارة أخرى استقرار العمل بقاعدة معينة مع الاعتقاد بإلزامها وعدم الخروج عليها، ويأتي احترام الناس للأعراف من حيث كونها تراثًا ورثوه عن آبائهم، ثم من إلفهم له ونشأتهم عليه، ولذلك كانت القوانين الظالمة التي هي الأعراف التي تهيمن على الجماعات التي تحكم البشر أعظم ما صد الناس عن اتباع الرسل، قال تعالى:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

[الزخرف: ٢٢-٢٤]

والمراد بالأمة في الآية الطريقة التي كانت تنتهجها كل أمة في حياتها، وهي ما نسميه في بحثنا بالأعراف التي جرت عليها الأمم في أمور معاشها، وعرض القرآن لهذه المسألة في آية أخرى فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وبعض أعراف الجماعات الإنسانية كان يصنعها الزعماء والرؤساء والقادة الذين سادوا بالقوة والسلطان، أو بصفات برزت فيهم مما يجعل الناس يتابعونهم فيما يفعلونه،

وقد كان في العرب من هذا النوع كثير، شرعوا للعرب جرائم خطيرة تحولت إلى قوانين تسري فيهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وقال في الآية الأخرى:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

وكان من هؤلاء عمرو بن عامر الخزاعي، فإنه كان زعيمًا مطاعًا، وهو أول من غير دين العرب، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إن أول من سيب السيوب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، وإني رأيته يجر أمعاءه في النار**»، وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السيوب**»، وقد ذكر الله في كتابه شيئًا مما شرعه عمرو هذا وأضرابه منكرًا له فقال:

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣][1].

وعندما كتب الناس قوانينهم في العصور الماضية وفي العصر الحديث كل الذي فعلوه أنهم عمدوا إلى هذه الأعراف التي كانت قوانين غير مدونة فدونوها، وحكموها

---

(١) **البحيرة**: الناقة تبحر أذنها، أي تشق، ثم ترسل، وتكون هذه علامة تعرفها العرب، فلا يركبها أحد، ولا يحملون عليها، يفعلون بها ذلك إذا ولدت خمسة بطون آخرها ذكر.
والسائبة: ينذر الرجل إذا حدث أمر يحبه أن يسيب ناقة، وتجعل كالبحيرة في عدم الانتفاع بها.
والوصيلة: كانت العرب إذا ولدت الناقة أنثى جعلوها لهم، وإذا ولدت ذكرًا لآلهتهم، وإذا ولدتهما قالوا: وصلت أخاها فيحرم ذبح الذكر.
والحام: الفحل يحمل من ظهره عشرة أبطن، فيحرم ذبحه وظهره، ولا يمنع من مرعى ولا ماء.

في مجتمعاتهم، وفي حال التدوين يكون تدخل الحكام ورجال الفكر في سن التشريعات: إما بما لديهم من عقل وفكر، وإما باقتباسهم من عادات الأمم الأخرى وقوانين الأمم الأخرى ما يرونه حسنًا، وفي هذه الحال قد يأخذون بعض أحكام الشرائع التي أنزلها الله فيجعلونه مما يتحاكم إليه، واعتبر في هذا بالقانون المدني المصري المنفذ عام ١٩٤٩ فإنه مأخوذ من القانون الفرنسي وعشرين قانونًا آخر، كما أخذ بعض أحكام الشريعة الإسلامية.

ولا يزال العرف يحتفظ بأهميته في بريطانيا، فالتشريع هناك - إلى اليوم - قائم على أساسه على العرف والسوابق القضائية، فأحكام القضاء تعد عند الإنكليز سوابق قضائية ملزمة لا يجوز الخروج عليها، ولذلك وصفت شريعتهم بأنها من صنع القضاء، كما أنها تعتبر كذلك شريعة غير مكتوبة، لقيامها على العرف والسوابق القضائية[1].

هذه هي مصادر قوانين الأمم التي لم تعتمد التشريع الإلهي الرباني قانونًا تتحاكم إليه، مصادر قوانينها أمران: **الأول**- الأعراف التي نشأت في الجماعة.

والثاني- ما يسنه رجال الحكم ورجال الفكر من تشريعات، ثم يصدرونها ويلزمون بها الناس. أما الشرائع السماوية فإنها تنزيل من حكيم حميد.

نطاق علم القانون ودائرته

يعد عمل القانون عند الباحثين فيه من العلوم التي تعني بالمجتمع، مثله في ذلك مثل علم الاقتصاد، وعلم الأخلاق، وعلم الاجتماع، إلا أن الذي يحسن التنبيه إليه أن لكل علم من هذه العلوم نطاقًا معينًا، وطريقة خاصة في البحث، فعلم الاقتصاد يبحث في الأمور المادية من حيث كسب المعاش وإنماء الثروة، وعلم الأخلاق يبحث فيما يهذب

---

(١) «المحاضرات في نظرية القانون» [١٩١].

النفوس ويقومها، ولاشك أن علم القانون يتأثر بغيره من العلوم الاجتماعية، إلا أنه ينفصل عنها في نطاقه وطريقة بحثه، فهو يختص بالعلاقات الاجتماعية التي تنشئ حقوقًا للإنسان أو ترتب عليه واجبات. وإذا جارينا الباحثين في علم القانون فجعلنا القانون الإسلامي محدودًا بهذه الدائرة التي حددوها فيجب أن نقرر أن علم القانون الإسلامي واحد من العلوم الإسلامية المنبثقة من الإسلام، وهذا الفرع يتصل ببقية العلوم التي هي فروع منبثقة من الإسلام، كعلم الأخلاق وعلم الاقتصاد...، وهذه الفروع المتحدة الأصل تتعانق وتتوافق، ولا تتعارض ولا تتنافر، ذلك أن مصدرها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقواعد والضوابط التي تحكمها متقاربة، أما القوانين الوضعية فمهما جاهد واضعوها ليجعلوها منسجمة فيما بينها متوافقة متعانقة، فإن ذلك يكاد يكون مستحيلًا.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

obeikandl.com

نشأة القانون

صعوبة البحث:

القول الفصل في نشأة القانون مبني على المعرفة الصادقة الموثقة بتاريخ الإنسان وأصله والأدوار التي مر بها، وهذه المعرفة متعذرة في بعض الأحيان، ومتعسرة في أحيان أخرى، فالتاريخ السحيق للبشرية يكاد يكون مجهولًا للباحثين الذين لا يؤمنون بالكتاب المنزل، وبحوثهم تقوم على نظريات وفرضيات، وما وجدوه من آثار عن الماضي السحيق لم يستطع أن يبرز الحقيقة ويجليها، ذلك أن العلماء لم يجدوا آثارًا مدونة عن الماضي الغابر، وهم يرون أن الكتابة لم تبدأ إلا منذ ستة أو سبعة آلاف عام تقريبًا بالنسبة لشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط وشعوب الشرق، ومنذ حوالي ألفين أو ثلاثة آلاف سنة بالنسبة لشعوب غرب أوربا[(١)]، ولقلة المعلومات في هذا المجال اتجهت عناية الباحثين إلى استكمال أوجه النقص عن طرق الاستعانة بثمرات الأبحاث التي قام بها علماء الاجتماع عن الجماعات الهمجية التي تعيش في عصرنا الحديث، مثل الاستراليين الأصليين والهنود الحمر وبعض قبائل أفريقيا، ولكن كثيرًا من الباحثين يشكك في نتائج تلك الأبحاث، فهم يرون أن هذه الشعوب مهما كانت متأخرة فإنها تطورت في أساليب حياتها وأنماط عيشها فلا تصلح المعلومات التي استفيدت من دراستنا لها للحكم على المجتمعات التي كانت تعيش قبل التاريخ[(٢)].

أما المعرفة المتعسرة فإنها لتاريخ الحياة الإنسانية المدون المكتوب، والسر في تعسرها أن المعلومات التاريخية المدونة غير وافية وكثير منها محرف مغير مبدل.

---

(١) انظر: «مبادئ تاريخ القانون» لصوفي أبي طالب ص[٢٢].

(٢) المصدر السابق.

نظرة العلماء الغربيين إلى أصل الإنسان ونشأته:

البحوث التي يقوم بها العلماء في هذا المجال تتلون بلون عقائدهم وتصوراتهم، والنظرة التي تسيطر على عقول الباحثين اليوم - إلا من شاء الله - أن الإنسان وجد بنفسه من غير موجد، ثم ترقى وتطور حتى وصل إلى الحال التي هو عليها اليوم، وترقت معه علومه ومعتقداته وقوانينه.

وهذه النظرة قائمة على التنكر لوجود الخالق الصانع، ومكذبة بالكتب السماوية، وجاحدة بالرسل، وأصحابها يزعمون أنهم يسلكون سبيل البحث العلمي النزيه وهم يكذبون بالحقائق الكبرى، ويدعون بأنهم طلاب حق، وهم يرفضون الانصياع لمن جاؤوا بالحق.

لقد ألقت هذه النظرية ظلالها القاتمة على كثير من العلوم: كعلم التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم العقائد، وتاريخ القانون...، ومن هنا نجد المؤرخين الذين آمنوا بهذه النظرية يصفون الإنسان الأول بأوصاف العجماوات، فهو لا يتكلم، ولا يفقه ولا يستطيع أن يصنع ما يواري سوأته، ولا يعرف شيئًا عن خالق الكون، وليس لديه شيء من النظم، انظر ما يقوله أحد رجال القانون عن معتقدات الإنسان: «تعاونت عوامل عدة على خلق العقيدة الدينية لدى الإنسان الأول، وأهم تلك العوامل: الخوف والدهشة والأمل، فهو يخشى الموت الذي يسلبه الحياة، والبرق الذي يصعقه، ويدهش لما يراه من أحداث يصعب عليه تعليلها، كحركة الشمس والقمر والنجوم... إلخ، وهو يأمل في معونة الشمس والمطر والسحاب...، وهذه العوامل أقنعته بأن لكل ما في الوجود - من إنسان وحيوان ونبات - روحًا، أو إلهًا خفيًا، تتراءى له في حلمه ويقظته، لذلك ظهرت العقيدة الدينية في صورة عبادة الأرواح»[(١)].

(١) «مبادئ تاريخ القانون» للدكتور صوفي أبي طالب ص[٣٠].

obeikandl.com

ويتحدث بعد ذلك عن تطور العقيدة الدينية عند الإنسان فيقول: «تطورت العقيدة الدينية بعد ذلك من عبادة قائمة على الخوف والرهبة من قوى الطبيعة إلى عبادة قائمة على تمجيدها والإشادة بقوتها وفضلها، ثم انتقل الإنسان بعد ذلك منذ أواخر العصر الحجري القديم إلى عبادة أسلافه، فقد تطورت عبادة الموتى إلى عبادة الأسلاف مخافة ما ينزلونه من لعنات بالأحياء»[(١)].

وعندما يتحدث علماء الاجتماع وعلماء القانون عن الخلية الاجتماعية الأولى للمجتمع البشري نجدهم يضعون عدة نظريات بعضها يخالف الحقيقة مخالفة بينة، فمنهم من يرى أن أساس الخلية الاجتماعية هو القبيلة أو العشيرة، وليس أساسها الأسرة المؤلفة من أب وأم وأولاد، والأسرة عندهم كانت مرحلة تطورت بعد ذلك.

ويعلل ماك لينان Mac Lenan[(٢)] صاحب هذا الرأي مذهبه هذا بأن الجماعات البدائية في العصر الحجري، لم تكن تعرف الزراعة ولا تربية الماشية، وإنما كانت تعيش على قنص الحيوانات الوحشة وتعتمد في قنصها على القوة البدنية والمهارة في القنص، ومن أجل ذلك كانت تعني بتربية الذكور وإعدادهم لهذه المهمة الصعبة الخطيرة، التي يتوقف عليها حياة الجماعة، ويرى لينان أن الإنسان الأول اضطر إلى وأد البنات وقتلهن ليتخلص من أفواه لا نفع له فيها، لأن النساء لم يكنَّ قادرات على الصيد والقنص، ولأنهنّ عاجزات عن اقتحام المخاطر للحصول على الغذاء، وقد أدى ذلك إلى ندرة النساء، وأضحت الأسرة البدائية تتألف من مجموعة من الرجال يشتركون في امرأة واحدة، وهو ما يسمى بحالة تعدد الأزواج.

---

(١) المصدر السابق ص[٣١].

(٢) ماك لينان عالم إنجليزي، أصدر عام ١٨٦٥ كتاب: «الزواج البدائي»، وفيه شرح رأيه، واحتج بمشاهداته التي قام بها في أفريقيا واستراليا وآسيا.

obeikandi.com

ويمضي لينان في تخيلاته فيرى أن توالي قتل البنات ونقص عدد النساء في الجماعة اضطر الرجال إلى خطف النساء من الجماعات المجاورة، وتأصلت بعد ذلك عادة الخطف في الجماعات البدائية، وأضحت على مر الزمن عادة راسخة يغضب الأجداد لمخالفتها، وعرفت بالزواج من الغريبة، وأصبح الزواج من بنات القبيلة جريمة يعاقب عليها بالقتل.

ويمضي لينان في إيراد هذه الترهات التي يتحدث عنها كما يتحدث عن حقائق عاشها وشاهدها، فيقرر أن هذه العادة قد أدت إلى جهالة نسب الولد إلى أبيه، لأن المخطوفات من النساء كثيرًا ما يتكرر خطفهن، واسترجاعهن وهنَّ حوامل، ولهذا كان ينسب الولد إلى أمه ويلحق بها، ويرى أنه قد نشأ عن ذلك نظام الأسرة الأمية، أي الأسرة التي تقوم كيانها على الانتساب إلى الأم.

ويستند ماك لينان ومن ذهب مذهبه هذا إلى نظرية التطور التي ظهرت في القرن التاسع عشر والتي نادى بها (داروين) وتبعه في الدعوة إليها مجموعة من علماء الاجتماع، وهذه النظرية تقوم على قدرة الإنسان على التطور من حالة إلى حالة أرقى بفضل الانتقاء الطبيعي أو الجنسي الذي يضمن بقاء الأفضل.

إن (لينان) يجعل الإباحية الجنسية وشيوعية النساء هي الحالة الأولى التي كانت عليها البشرية في أول أمرها، وليست انحرافًا للبشرية في مسيرتها[١].

ويرى فريق آخر أن الوحدة الاجتماعية الأولى قد تكونت من رابطة بين أفراد تقوم على اعتقادهم بأنهم ينسبون إلى (توتم) واحد.

وتقوم فكرة (التوتم) على الاعتقاد بأن الإنسان قد انحدر من كائنات حيوانية أو نباتية، أو من ظواهر طبيعية كالبرق والرعد والشمس والقمر، وأنه كان في الزمان الأزلي

(١) «تاريخ النظم والشرائع» للدكتور عبد السلام الترمانيني ص[١٨] طبع جامعة الكويت.

متحـدًا معهـا، ثم خلقت له أعضاء بشرية وأخذ يمـشي على الأرض، بينما بقيت هي على طبيعتهـا الأصليـة، وبذلك يكون التوتم هو الحيوان أو النبات، أو الظاهرة الطبيعية التي انحدر منها الجد الأعلى أو الجد الأسطوري واستحال إلى إنسان.

والعشيرة (التوتمية) تتألف من الأفراد الذين يعتقدون أنهم ينحدرون من توتم واحد تقمص فيهم، والأم حين تضع مولودها هي التي تعلن عن روح التوتم الذي تلبسها حين الحمـل وتقمص ولدها، وبذلك قد ينتسـب الأخـوة إلى تواتم مختلفـة، فالرابطة بين أفراد العشـيرة التوتميـة إذن لا تقـوم على رابطة الدم، وإنـما تقوم على رابطـة الاعتقاد بأن هؤلاء الأفراد ينتمون إلى توتم واحد، فإذا كان هذا التوتم هو الذئب مثلًا فهذا يعني أنهم يؤلفون مع فصيلة الذئاب وحدة اجتماعية وأسرة مشتركة ذات طبيعة واحدة، وينزلون هذا الحيوان وما يرمز إليه منزلة التقديس فتراهم يتخذون منه اسمًا لهم وشارة يلتفون حولها.

والاعتقـاد بالانتـماء إلى توتم واحد يجعل الأفراد إخوة، فلا يحـل للرجل أن يتزوج من امـرأة ينتمي هو وإياهـا إلى توتم واحد، لأنها أخته، وبذلك يقضي هـذا الاعتقاد بالزواج من خارج الجماعة، والنساء اللواتي يؤتى بهنّ يكنّ مشاعًا بين الرجال كشيوع الأموال فيما بينهم.

وقـد اسـتدل أصحـاب هذا الـرأي الذيـن يـرون أن العشـيرة التوتمية هـي الخلية الاجتماعيـة الأولى على صحة مدعاهم بالحال التي عليها الهنود الحمر وسـكان اسـتراليا الأصليين، فهم يعيشون في حالة الإباحة الجنسية في الوقت الحاضر[١].

(١) «تاريخ النظم والشرائع» للدكتور عبد السلام الترمانيني ص[٢٤].

حكم القرآن على هذه النظريات:

هذه الترهات التي ذكرناها ليست مسلمة عند جميع علماء الاجتماع وعلماء القانون، ولكن لا يكاد مؤلَف من مؤلفاتهم يخلو من ذكرها وشرحها وبيانها، ومثل هذه النظريات والفلسفات يسميها القرآن بالضلال والظلمات.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٧].

وقال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

والآيات في الحديث عن الضلال والضالين كثيرة.

وقد وصف الله الذين عشعشت في عقولهم هذه الفلسفات والنظريات بأنهم يعيشون في الظلمات، فهم ينتقلون من ظلمة إلى ظلمة.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾.

[البقرة: ٢٥٧]

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وهذا الصنف من البشر ظالمون؛ لأنهم يتحدثون عن الحقائق العظمى بالظنون والهوى.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

[القصص: ٥٠]

obeikandi.com

إن من أعظم الجرائم عند الله القول في الحقائق الكبرى بلا علم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨].

وعندما زعم بعض الناس أن الملائكة أناث جعل الله ذلك شهادة منهم سيحاسبهم عليها.

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

والحديث عن أصل الإنسان بناءً على نظريات وظنون تخالف ما قرره خالق السموات والأرض ضلال وباطل.

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾. [الكهف: ٥١]

إن هؤلاء الذين يؤرخون للإنسان لا يتحدثون عن الخط الأصيل الذي مثله الإنسان على مر العصور، وإنما يؤرخون للفترات التي انحرف فيها الإنسان عن الصراط المستقيم، والزعم بأن حياة الإنسان منحرفة في أصلها زعم باطل، إن الخط الأصيل في التاريخ الإنساني هو الذي يمثله الرسل وأتباعهم في جميع الحقب، والانحراف عن خطهم ضلال، فكيف يكون الشرك واتخاذ الآلهة الباطلة وارتكاب الموبقات والجرائم هو الأصل الذي يمثل تاريخنا، إن القرآن وحده هو الذي يتحدث عن تاريخ البشرية الصادق، والمسلم الذي يخوض في هذه المجالات والعلوم عليه أن يفكر تفكيرًا قرآنيًا، فيحاكم نظريات البشر وأقوالهم وعلومهم إلى القرآن، ولا يجوز أن ينسى قرآنه فيتيه مع التائهين، ويزيغ مع الزائغين، فيكون مثله مثل الحمار التائه في الصحراء وفوق ظهره كتب

العلم التي تهديه إلى سبيل النجاة، ولكنه لم يستفد منها، وبقي حائرًا في تلك الفيافي حتى قتله العطش والجوع.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

تاريخ الإنسان في القرآن:

وقد جاءنا كتابنا بالنور الكاشف الذي يخرجنا من الظلمات التي تسمى فلسفات ونظريات.

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة: ١٥].

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١].

لقد أخبرنا الله عن أصلنا الذي منه خلقنا، فقد خلقنا من تراب، وقد أصبح التراب طينًا، ثم شكَّل الله ذلك الطين بيده، وخلق منه أبانا آدم، ومن آدم خلق حواء زوجه، وعلَّم آدم أسماء كل شيء، وعصى آدم ربه فأهبطه إلى الأرض، ورزقه الذرية، وكانت ذريته على التوحيدة مدة من الزمان.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

أي على التوحيد فاختلفوا.

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأول الرسل نوح، وقد دعا قومه بلسان فصيح وقول بليغ، وإذا رجعت إلى سورة نوح، والمواضع التي عرض الله فيها خبره في القرآن - رأيت أن دعوة أول الرسل

وآخر الرسل دعوة واحدة، وأن العقائد والتصورات التي جاء بها نوح لم تكن بدائية كما يزعم الزاعمون، وهذا أعظم دليل على كذب من يقول أن الناس ترقوا في عقائدهم وتصوراتهم، فلما أصروا على الانحراف المخالف للحق الأصيل أهلكهم الله، ونجى المؤمنين، فلما كثر عددهم، وطال عليهم الأمد - أصابهم الداء الذي أصاب قوم نوح، فأرسل الله إليهم رسولًا، وهكذا يستقيم البشر على الحق حينًا، ثم ينحرفون، فيرسل الله إليهم رسله يحملون الهداية.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

لم يترق الناس في عقائدهم وتصوراتهم كما ترقوا في علوم الحياة والصناعات؛ لأن العقيدة والملة منحة إلهية، وهدى رباني، يأتي للبشر من رب البشر، أما علوم الحياة والصناعات فتجارب وخبرات يكتسبها الناس عبر تاريخهم.

والخلية الإنسانية الأولى - كما يوضحها القرآن - هي الأسرة، وأول أسرة إنسانية هي التي تكونت من آدم وزوجه حواء، ثم تكاثر البشر بعد ذلك بطريق الزواج.

openkanar.com

الحاجة إلى القانون

رأينا كيف ضل الباحثون في تاريخ القانون وتاريخ العقائد عندما بحثوا في تاريخ الإنسان وأصله، ونراهم يضلون مرة أخرى عندما يبحثون في مدى حاجة الإنسان إلى القانون، والسبب في ذلك أن أكثرهم لم يفقه طبيعة الإنسان، فبعض الباحثين في هذا المجال يصورون الإنسان ملاكًا ليس للشر في حياته نصيب، وهؤلاء يزعمون أن الإنسان الأول كان يعيش حياة الطهر والفضيلة ليس فيها انحراف ولا ظلم، ولم يحتج في تلك الفترة إلى قانون ولا دولة ولا محاكم... .

وقد أدت الأبحاث التي قام بها أصحاب هذا الاتجاه إلى الزعم «بأن القانون غير ضروري لخلق مجتمع عادل، بل إنه قد يكون شرًا في ذاته، وبالتالي فهو عقبة خطرة في سبيل تحقيق طبيعة الإنسان»[(١)].

لقد زعم ذلك مزدك رائد الشيوعية في فارس قديمًا، وتزعمه الشيوعية الظالمة اليوم، ويزعم ذلك أقوام كثيرون ينسبون إلى العلم.

ويقوم فريق آخر فيعكس القضية، حيث يرى أنه لابد من القانون، هؤلاء يتصورون أن الإنسان ليس إلا وحشًا ترقى وتهذب، والقانون ضروري له لردعه عن حيوانيته ووحشيته.

طبيعة الإنسان كما يصورها القرآن:

والقرآن يصور طبيعة الإنسان تصويرًا مخالفًا لأصحاب النظرتين السابقتين، القرآن يقرر أن الإنسان صاحب فطرة سوية سليمة.

---

(١) «فكرة القانون» لدينيس لويد ص[١٣].

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

ولكن الإنسان فيه قبول للضلال والانحراف بسبب ظلمه وجهله، وما غرس فيه من شهوات.

﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أضف إلى هذا أن الإنسان قابل للتأثر بالضلال الخارجي، ويتمثل هذا بالشياطين الدائبة على إفساد الفطرة الإنسانية، وإبعاد الإنسان عن المسار الصحيح، وقد قال الشيطان لرب العزة:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

نحن نوافق الفريق الأول في أن الإنسان في فجر حياته الإنسانية كان يعيش معيشة الطهر والفضيلة، وكان المجتمع الإنساني صالحًا مستقيمًا، ولكننا نقول لهم: لم يكن هذا بسبب جهله وفوضويته، بل لأنه استقام على المنهج الإلهي الذي أمد الله به أبا البشرية آدم عندما أهبطه الله إلى الأرض، وعلى الرغم من ذلك فقد وقع في تلك الفترة شيء من الظلم والانحراف حيث قتل ابن آدم أخاه ظلمًا وعدوانًا.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ۖ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

إلى أن قال:

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

إن أقرب الباحثين إلى الحق من رجال القانون هم الذين يقررون أن الحاجة إلى القانون نتجت عن الاجتماع الإنساني، فالإنسان لا تقوم حياته إلا بالاجتماع، وإذا تم

obeikandl.com

معيشة الإنسان في مجتمعات نشأت مشكلات من جراء ذلك، وسبب هذه المشكلات ما غرس في أعماق نفسه من أثرة وحب للذات، فإذا ترك الإنسان لهواه في دنياه فإن مصالح الأفراد في المجتمع الإنساني تتعارض، وهذا يؤدي إلى الخصام والنزاع، ولذلك يقولون: إن القوانين وقاية من العلل والمشكلات المتوقعة مثلما إنها علاج للعلل والمشكلات الواقعة.

ولكن هؤلاء وضعوا الإنسان في دائرة ضيقة، فالحاجة إلى القانون عندهم ليست إلا لصلاح الدنيا، أما ما يقرره القرآن فإنه أعمق وأوضح، الذي يقرره أن الإنسان بحاجة إلى القانون أو الشرع الذي يصلح حياته الدنيا وحياته الأخرى، القانون الذي يوقفه على النافع والضار من العلوم والأقوال والأعمال، ومن هنا جاءت الشريعة وافية بالغرض، فهي الشريعة الوحيدة التي تضع للإنسان قانونًا ليس محكومًا بالإطار الدنيوي، بل تصل إلى ما بين الدنيا والآخرة، وبذلك يعيش الإنسان في ظلال منهج متكامل سوي يصلح حياة الإنسان[1].

(١) إذا أردت أن تتطلع على بعض ما كتبه العلماء المسلمون في ضرورة القانون فارجع إلى: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ١٧)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣/ ١١٤، ١٩/ ٩٩)، وتعرض لهذا ابن خلدون في مقدمة تاريخه.

obeikandl.com